٩٩/٨/٤/٥٧

الفكر العربي

مجلة الإنماء العربي للعلوم الانسانية

تصدر عن معهد الإنماء العربي في بيروت

العدد الحادي والثلاثون كانون الثاني (يناير) ـ آذار (مارس) ١٩٨٣ السنة الخامسة

مستشارو التحرير

د. علي بن الأشهر — د. إحسان عباس — د. شكري فيصل

الشيخ عبدالله العلايلي — د. عمر التومي الشيباني — د. عبدالسلام المسدي — رئيس التحرير

د. مصطفى التير — د. معن زيادة — د. إبراهيم رفيدة — رضوان السيد

المدير المسؤول عوض شعبان

العنوان

معهد الإنماء العربي
بيروت ـ لبنان

ص.ب المجلة : ١٤/٥٥٦٤ ص.ب المعهد : ١٤/٥٣٠٠

الهيئة القومية للبحث العلمي
طرابلس ص.ب ٨٠٤

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٨٤١١
التاريخ / ٢٠١٤/٢/١٥

الثمن : ٢٠ ل.ل. أو ما يعادلها

الغرب والشّرق الأوسط (★)

برنارد لويس
مراجعة موسى حمّود

« الغرب والشرق الأوسط » عنوان كتاب للكاتب برنارد لويس الذي كان رئيس قسم التاريخ في كلية الدراسات الافريقية والشرقية بجامعة لندن، وهو اليوم استاذ بجامعة برنستون. والكتاب عبارة عن ست محاضرات ألقاها **لويس** في نيسان ١٩٦٣ في جامعة (انديانا ـ بلوفنكتن) بالولايات المتحدة الاميركية، ونقلها الى العربية الدكتور نبيل صبحي.

يحصر المؤلف موضوع محاضراته بالعلاقات بين الغرب والشرق الاوسط وتأثير الأول ومدنيته على الشعوب الاسلامية، وبشكل خاص على المجتمعات الشرق أوسطية.. وردة فعل هذه المنطقة في أدوارها المتعاقبة.

وزّع المؤلف محاضراته على فصول ستة. ففي الفصل الاول « معالم الصورة التاريخية » لمنطقة الشرق الاوسط، يشير لويس الى ان تعبير « الشرق الأوسط » أطلق للمرة الاولى سنة (١٩٠٢)، يوم أطلقه المؤرخ البحري الاميركي « الفرد ثاير ماهان » ليدل به على المنطقة الواقعة بين الهند، وشبه جزيرة العرب، والخليج الفارسي كمركز لها من وجهة النظر الستراتيجية البحرية. إلا أنّ جريدة « التايمز » اللندنية تبّنت هذا التعبير وتبعتها فيما بعد الحكومة البريطانية. وهكذا شاع استعمال هذا التعبير الى جانب تعبير آخر سبقه بقليل وهو « الشرق الأدنى ». إلا أنَّ كلا التعبيرين حديثان ولكنهما ليسا عصريين. فهما من مخلفات عالم تحتل أوروبا الغربية وسطه مستقطبة المناطق الأخرى حولها. وعلى الرغم من أنّ أصل هذين التعبيرين قد بطل استعماله وضيق النظرة التي يوحيان به، فقد حظي تعبير « الشرق الأوسط » بقبول عالمي وهما يستعملان الآن للدلالة على تلك المنطقة من قبل الروس والافريقيين والهنود الذين يشكلون على التوالي حدوده الشمالية والجنوبية والشرقية.

ويستغرب المؤلف كيف تستعمل شعوب الشرق الاوسط نفسها هذا التعبير! كما يرى ان الواقع الملفت للنظر هو أن تُعرَّف هذه المنطقة العريقة الحضارة (اقدم حضارات العالم) حتى بين ابنائها، بتعابير حديثة باهتة. لكنّ المؤلف ما يلبث ان يعود عن رأيه بالقول: « غير ان ايجاد بديل مناسب لهذين التعبيرين ليس أمراً سهلاً أبداً » مذكراً بمحاولة قامت بها الهند لاستبدال تعبير الشرق الاوسط الغربي الأصل بتسمية المنطقة « آسيا الغربية ». ويرى لويس

(★) برنارد لويس: الغرب والشرق الأوسط. تعريب نبيل صبحي. بيروت ١٩٦٥. ٢٢٣ ص. والكتاب في الأصل محاضرات ألقاها المؤلف بجامعة أنديانا بالولايات المتحدة عام ١٩٦٣.

أن هذا التعبير الجغرافي الجديد هو أدق شكلاً ولوناً من تعبير الشرق الاوسط.. لكنه ليس افضل منه بكثير. ثم إنّ تسمية المنطقة بجزء غربي من وحدة كلية هي آسيا أمر لا يقلُّ تضليلاً عن تسمية المنطقة «شرقاً اوسط» لوحدة كلية غير محددة المعالم، كما انه ليس من المناسب ان يطلق على المنطقة تعبير تستبعد منه شكلاً مصر. ويتساءل «لويس» عن اسباب انتشار هذين التعبيرين وقبولهما عالمياً، فيحصر ذلك بالحقائق التالية:

أ ـ ان هذه المنطقة بالنسبة للاوروبيين هي منذ اكثر من الف سنة «الشرق» التقليدي القديم، الجار والمنافس لاوروبا اليونانية ـ الرومانية، ومن ثم لاوروبا المسيحية منذ ايام قيام جيوش كبار الاكاسرة الفرس باحتلال اراضي اليونان الى انسحاب مؤخرة جيوش السلاطين العثمانيين.. وحتى اواخر القرن التاسع عشر حيث كانت البلاد الواقعة في جنوبي غربي آسيا، وشمال شرقي افريقيا هي بالنسبة للاوروبيين «الشرق» دون حاجة لتحديد ادق، كما ان الامر الذي كان يشغل بال الاوروبيين هو «المسألة الشرقية».

في هذا الصدد يشير المؤلف الى ان تدخل اوروبا بمشاكل الشرق الواسع البعيد فرض عليها تعبير يحدد مناطق الشرق باسلوب اكثر دقة وواقعية .. وخصوصاً منذ ان أصبح الشرق الأقصى موضوعاً يُتداول في المجالس الاوروبية. عندها ظهرت الحاجة الى تعبير يطلق على مناطق الشرق الاكثر قرباً لاوروبا من مناطق الشرق البعيدة. وهكذا بدأ استعمال تعبير «الشرق الأدنى» في أواخر القرن التاسع عشر ليدل على المناطق الواقعة جنوبي شرقي اوروبا أي المناطق التي كانت واقعة تحت سيطرة الحكم التركي. فلقد كانت «ادنى» اي اقرب كونها اوروبية ومسيحية. وكانت «شرقاً» لانها كانت لا تزال تحت حكم الامبراطورية العثمانية ـ الامبراطورية الشرقية المسلمة (ص ٣) ـ اما تعبير «الشرق الادنى» فقد استعمله الاميركيون لفترة ما ليدللوا على مناطق أخرى أكثر امتداداً نحو الشرق الأدنى. والمقصود «بالأدنى» هنا ليس (دانياً) كما كانوا يظنون؛ إلاّ أنهم أهملوا هذا التعبير واستعاضوا عنه بالتعبير الذي عم وشاع «الشرق الاوسط» ليدللوا على مناطق واسعة من جنوب غربي اسيا وشمال افريقيا.

ب ـ على الرغم من حداثة استعمال هذا التعبير واستمرار الالتباس لموقعه، فان تعبير الشرق الاوسط يدل على منطقة ذات هوية وصفات لا يمكن تجاهلها، وذات شخصية مميزة شائعة ساعد على تشكيلها ملامح جغرافية واضحة وقوية وتاريخ مشهور طويل.

فالصفة الجغرافية البارزة للشرق الاوسط هي الاراضي القاحلة الشاسعة الواسعة في جميع اطرافه، فالمطر نادر والمناطق الحرجية قليلة. وباستثناء بعض المناطق المحظوظة فإن الزراعة بصورة عامة تعيش على السقاية طول العام، وتحتاج الى حماية دائمة ضد العوارض الطبيعية والبشرية. ومعظم شبه الجزيرة العربية مكون من الصحارى ما عدا الزاوية الجنوبية الشرقية، والزاوية الجنوبية الغربية. أما الهلال الخصيب فليس إلا إطاراً ضيقاً من الاراضي المروية الصالحة للزراعة على حدود جزيرة العرب الشمالية.. ومصر بغالبيتها صحارى ما عدا البقعة الخضراء حول النيل التي تنتهي بالدلتا على شاطىء المتوسط، والقسم الاكبر من شمالي افريقيا لا يزال حتى الآن مجدباً، افيما عدا الحزام الساحلي وبعض الواحات.. تركيا وايران تتشكل فيها مساحات شاسعة من الصحارى والسهول.

ج ـ يرى لويس في منطقة الشرق الاوسط أنها مهبط الديانات السماوية الكبرى. فقد كانت هذه الديانات بالمنطقة وما زالت المنطقة تعيش بين ظهراني سيادة إحداها فيه. فمنذ ثلاثة عشر قرناً والشرق الاوسط هو أرض الإسلام، ويمثل قلب العالم الاسلامي جغرافياً وفكرياً وروحياً، ففيه ولد ايمان المسلمين، وعلى ارضه صيغت للمرة الاولى الحضارة الاسلامية. فالاسلام بالنسبة له

عقيدة وايمان يتعدى حدود الشرق الاوسط. فهناك في آسيا وإفريقيا شعوب مسلمة كثيرة بعضها يتجاوز تعداده وحده تعداد مسلمي الشرق الاوسط مجتمعين، في حين ان المسلمين الآسيويين والافارقة يتطلعون في توجيههم وقيادتهم لمسلمي الشرق الاوسط، وصلة هؤلاء بأولئك تشبه الى حدٍ ما صلة بلاد ما وراء البحار بأوروبا، ففي الشرق الاوسط تسلسلت الأحداث الاسلامية الكبرى التي شكلت تراثاً تاريخياً مشتركاً لجميع المسلمين في سائر أنحاء العالم، وحددت معالم هويتهم العلمية، وسكبت القوالب الاساسية للشخصية الاسلامية، وكان قيام الخلافة والسلطنات والامبراطوريات الاسلامية. وسادت في غالبيتها على أرض يتكلم سكانها العربية والفارسية والتركية.

د ـ من حيث الثقافة يعتبر لويس أنه مع ظهور الاسلام في القرن السابع الميلادي سيطرت اللغات الثلاث في المنطقة وحلت محل اللغات القديمة التي كانت واسعة التفاهم كاللغات القبطية؛ الإغريقية والسورية وإبادتها تماماً. كما حصرتها في مجال الطقوس الدينية والتراتيل المعبدية، أي أنها حجَّرتها وجمدتها. واللغات الثلاث العربية والتركية والفارسية غير متشابهة، وهي تُمتُّ لألسنةٍ ليس بينها قرابة.

فاللغة العربية لغة سامية مثل العبرية والسريانية، وفي حين ان الفارسية هندو ـ اوروبية لها صلة بالسنسكريتية، من جهة وبأكثر اللغات الاوروبية من جهة اخرى... كذلك التركية تنتمي لمجموعة اخرى (تترية ـ تركية) وتعم آسيا الوسطى حتى الشرق الاقصى شرقاً والقطب شمالاً. ويؤكد لويس على أنه بالرغم من اختلاف اللغات الثلاث من الوجهة التركيبية فإنها متقاربة جداً من الوجهة الثقافية والحضارية. فهناك مجموعة ضخمة من التعابير العربية مستعملة في اللغة الفارسية الى جانب الكثير من الكلمات العربية والفارسية المستعملة في اللغة التركية. وقد استعانت اللغتان الفارسية والتركية باللغة العربية كما هو الحال بالنسبة للغات الاوروبية التي استعانت باللغات اليونانية واللاتينية.

هـ ـ أمّا شعوب هذه اللغات الشرقية الثلاث، فقد ظهرت على مسرح الشرق الاوسط ممثلة الدور الرئيسي في الأحداث. واول هذه الشعوب كان العرب. ونتيجة للفتوحات العربية مع ظهور الاسلام انضمت البلاد (شمال افريقيا وجنوب غربي آسيا) إلى الإمبراطورية الحديثة الواسعة الأطراف التي امتدت من الأطلسي وجبال البيرينية في الغرب حتى حدود الهند والصين في الشرق. ولقد بقي العرب الفاتحون لعدة قرون يحكمون هذه الامبراطورية، إذ شكلوا فئة حاكمة لهذه الدولة وكانت عقيدتهم التي حملوها، ولغتهم التي نشروها (لغة القرآن). فهي الأساس والوسيلة لحضارتهم الحديثة التي أسهم في بنائها أناس من شعوب متعددة لكنها كانت تنشر باللغة العربية وتسكب في إطار الأفكار الإسلامية وتوزن بالمعايير الاسلامية. ويشدد «لويس» على أنه بالرغم من مشاركة الغير في الحكم واستلام طبقة من الموظفين والمدنيين والعسكريين من اصل غير عربي، فإن اللغة العربية بقيت على قوتها في المجال الثقافي الى حقبة لم يعد للعرب فيها شأن وسلطان في الحكم.. ومن حدود فارس والعراق عبر الهلال الخصيب حتى شمال افريقيا بلغت اللغة العربية المكانة الاولى بعد ان أزاحت اللغات الرسمية السابقة، وأصبحت بالتالي اللغة العامة لجميع هذه البلدان مع بعض الاستثناءات. اما الفرس فهم برأي لويس قد اسهموا في إغناء الآداب الاسلامية المكتوبة باللغة العربية لكنهم بقوا فرساً يختلفون عن العرب لغة ومشاعر. وفي القرنين التاسع والعاشر الميلاديين عاد الفرس الى المسرح السياسي وظهرت دولة فارسية مستقلة حلّت محل ما كان يسمى بالولايات الإسلامية التي كانت تشكل جزءًا من الإمبراطورية العربية، كما احتلت إيران واجهة الصدارة بعد ان تخلت القاهرة وبغداد ودمشق. أما الترك فقد ظهروا على المسرح السياسي بعد ان جاءوا من آسيا الوسطى (وراء نهر سرداريا ـ الجاكزرت)، حيث كانوا بأغلبيتهم وثنيين. والقليل منهم خليط من المسيحيين والمانويين والبوذيين واليهود.

لكنهم مع الزمن اصبحوا جميعاً بلا استثناء مسلمين ولعبوا دوراً هاماً وطويلاً في حكم العالم الاسلامي.

و ـ بعد هذا الاستعراض يستنتج «لويس»، أنّ المسيحية اندحرت في منطقة الشرق الاوسط، لكنها لم تتحطم بظهور الاسلام. تناقص عدد المسيحيين بعد ان انتقل بعضهم الى الإسلام. ومع ازدياد عدد المسلمين أصبح المسيحيون أقلية في الشرق الأوسط. فالتأثير كان من حيث العدد، لكن بقي لهم وزن لا بأس به لما كان لهم من حرية العقيدة والعبادة. كما لعبوا دوراً صغيراً بسبب تسامح الدولة الاسلامية لكنه مهم في بناء الحضارة الاسلامية الشهيرة.

ويذكر المؤلف أنه عندما جاء الصليبيون كان أبرز ما جلبوه هو تراث ضخم من التعصب والشك فأثروا بذلك على علاقة العرب بالمسيحيين، كما أنهم أضعفوا الوثيق من الصلات التي كانت قائمة قبل قيام الحروب الصليبية. وهنا يشير لويس الى ان الدولة الإسلامية أبقت للمسيحيين الشرقيين حقوقهم التي كفلتها لهم الشريعة الاسلامية كاملة. أما ردّة فعل المسيحيين الشرقيين فكانت أن عزلوا أنفسهم عن المجتمع الإسلامي وابتعدوا عن الحياة الايجابية الفاعلة في ميدان السياسة والفكر بعد ان اشتركوا فيها في الماضي.

وبرأي لويس، فإن اليهود أسهموا ولو بأسلوب أضعف في الحضارة العربية الاسلامية! وكذلك أصابهم ما أصاب المسيحيين الشرقيين من اضمحلال نفوذ وفتور علاقاتهم مع العرب المسلمين بعد الحروب الصليبية.. وظلوا على هذه الحال الى ان هاجرت جماعات منهم الى فلسطين ليستوطنوا فيها. بيد أن عددهم بقي قليلا والهدف المحرك لهم كان دينياً بحتاً. لكن مع مطلع القرن التاسع عشر تغير العامل المحرك لهم، وبدأت هجرة من نوع جديد كانت نتيجة لانتشار الأفكار القومية. ومعظم المهاجرين الجدد أتوا الى فلسطين من اوروبا، وهم جماعة من الشباب يحدوهم العامل القومي وليس العامل الديني. فلم تعد غايتهم الصلاة والتعبد ثم الموت، بل العمل والاستغلال الاقتصادي والحياة. ويتطرق لويس الى الأقلية الكردية فيعتبرها الأقلية العرقية واللغوية الوحيدة التي عاشت في قلب الشرق الأوسط المسلم، لكنها مسلمة ومتدينة ومحافظة على لغتها. وتتوزع هذه الاقلية في تركيا وإيران والعراق. وعلى حواشي المنطقة تعيش لغات أخرى متعددة مثل ما في افغانستان: لغتان رسميتان/الفارسية والباشتو/ وشمال افريقيا اللغة/البربرية/الى جانب التركية، الفارسية، الغريغورية، الارمنية، الشركسية، الشاشانية في القوقاز وغيرها. أمّا اللغة العربية فهي مستعملة في منطقة واسعة من العراق إلى المغرب مع اختلاف في اللهجات المحلية المتداولة؛ في حين ان اللغة الادبية المكتوبة بقيت واحدة وتزداد قوة ربطها للعالم العربي بانتشار التعليم والصحافة والإذاعة والسينما.

وينتهي لويس في هذا الفصل بعد ان عرَّف المنطقة بكل مستوياتها الى القول: إن القاسم المشترك لهذه الشعوب الاسلامية كان العقيدة اولاً «لا إله إلا الله ومحمد رسول الله»، وثانياً القرآن والسنة، وثالثاً النظام الماهر المعقد المبني على نظرية الاسلام الدينية وعلى الفقه الذي استند إليها.. الا أن الإسلام مر بفترات خطيرة كان مهدَّداً فيها من الشرق والغرب، غير أنه تغلب عليها دون أن يتأثر (المغول والصليبيون) ثم تعرض للطمتين أشد وأقسى. وأولى هاتين اللطمتين كان الغزو المغولي الذي حطم الخلافة القائمة، وأخضع للمرة الأولى منذ عهد النبوة قلب العالم الاسلامي لحكم غير إسلامي وكانت اللطمة الثانية تأثير الغرب الحديث.

ويتناول الفصل الثاني من الكتاب مسألة تأثير الغرب ويخص بذلك الشعوب الاوروبية. إذ إن الغرب لم يعد يعني وضعاً جغرافياً خالصاً بقدر ما يعني كياناً ثقافياً واجتماعياً وسياسياً وعسكرياً. ويعتبر المؤلف أنّ تحديد الغرب بالنسبة للشرق أمرٌ سهلٌ جداً، فهناك اكثر من «شرق» واحد،

فعندما نتحدث هنا في الغرب عن المنافسة الدائرة بين الشرق والغرب فإننا نعني عادةً الحرب الباردة وما يتفرع عنها. وبهذا المعنى نعتبر كلمة الشرق: الكتلة السوفيتية والكتل الشيوعية وهي ليست واحدةً حتى الآن. أمّا الغرب فيعني الحلف الغربي والمسهمين فيه (صفحة ٣٥). وَيَرُدُّ المؤلف كلمة «الغرب» لأول مرة اطلقت في القرون الوسطى على ألسنة الكتاب المسلمين ولم يكن يقصد بها أوروبا المسيحية؛ لأنّ الإسلام له غربُهُ الخاص به في شمال أفريقية والأندلس حتى شواطىء الاطلنطي. كما أنه لم يكن هناك داعٍ لإطلاق كلمة «الغرب» على بلاد غير المسلمين والتي تقع شمال البحر المتوسط. فالمسلمون كانوا يقسمون العالم الى منطقتين دار الإسلام، ودار الحرب، وبين الدارين حرب دائمةٌ وفي أفضل الأحوال تقوم بين الدارين هُدْنةٌ.

وحول هذه المسألة ينظر «لويس» الى ان الفرنجة كانوا في أعْيُن المسلمين في ذلك الوقت جنساً من البرابرة والمشركين لا يهمون الاسلام في كثيرٍ أو قليل. كذلك كان العالم الاسلامي ينظر الى المسيحية واليهودية على انهما ديانتان سماويتان وأصلهما حقيقةٌ إيمانيةٌ صحيحةٌ. وهما حلقتان قديمتان في سلسلة الأديان السماوية التي اكتملت بظهور الاسلام. لذا فقد احتفظ الإسلام بأساسيات ما في هاتين الديانتين من عقائد واعترف بها وقدّرها ما عدا الزيادات والتشويهات والتحريفات. أمّا المسيحية في حالتها التي آلت اليها، ومعها الحضارةُ الأوروبية المسيحية التي بنيت على أساس تلك الحالة فليست كاملة في نظر المسلمين، هي ناقصة ومحرَّفة ومنسوخة. ويعتبر لويس أن في نظرة المسلمين هذه الى الحضارة المسيحية نظرة تسامح وتساهل اكثر بكثير مما في نظرة اوروبا المسيحية المعاصرة الى الإسلام على انه كله باطل وشر.. ثم إن النظرة المتسامحة من المسلمين تنعكس في المعاملة الحسنة والتسامح الكبير الذي يلقاه أتباع الديانة المسيحية في المجتمعات الاسلامية بالرغم من موقع المسيحية كديانة منافسة للإسلام (ص ٣٨).

ونتيجة للتدخلات الخارجية من حملات صليبية، والتوسع الاوروبي في منطقة الشرق الاوسط، يلخص «لويس» ابرز ما تأثرت به المنطقة:

١ ـ اتخاذ المسلمين الزي الأجنبي في عهد المماليك، الرداء المغولي (الرأس وإطالة الشعر) وانتقال عدوى ارتداء الستر الاوروبية في القرن التاسع عشر الى صفوف الجيش بأمر عسكري، وقطاع الموظفين المدنيين بأمر حكومي حيث أصبح اللباس الاوروبي فيما بعد رمزاً للعلم والتقدم. ثم سقط آخر عمود للمحافظة الاسلامية بزوال الطربوش والعمة وحل محلها الرأس الاوروبي المكشوف. ويعود السبب بنظر المؤلف في هذه التغييرات الى حب البقاء عند هذه الشعوب في عالم تسيطر عليه اوروبا المتوسعة المتقدمة.

٢ ـ تأثرت المنطقة بالتطور التقني الغربي على مختلف الصعد الاقتصادية والاجتماعية والعلمية. ومن خلال هذا التأثير ازدادت البعثات العلمية من طلاب الشرق الاوسط الى اوروبا بهدف التحصيل العلمي واكتساب الخبرة في القطاعات المختلفة. كما ساهمت الكتب الاوروبية في نشر افكار واخبار الغرب في الشرق، وحركة الترجمة واللغات. وبرأي «لويس» فإن تأثير الغرب في الشرق الاوسط اتى بفوائد كبيرة! وسيأتي حتماً بفوائد اخرى في مجال الثروة والرفاه والمعلومات والمصنوعات وفتح أبوابٍ جديدةٍ كانت مغلقة في الماضي.

وتحت عنوان «العمل في سبيل التحرر» ينتقل المؤلف في الفصل الثالث الى وصف اندهاش الانسان الشرق اوسطي بمعجزة الغرب «الحرية» التي أدت الى النجاح والتطور على مختلف الصعد.. مع الاشارة الى أن فكرة الحرية السياسية في الشرق الاوسط قد ظهرت في نظره للمرة الاولى في أواخر القرن الثامن عشر ثم نمت وترعرعت خلال القرن التاسع عشر، ومن ثم ماتت في اكثر بقاع المنطقة في اواسط القرن العشرين (ص ٦٧). ويقارن «لويس» مسألة الحرية بما جاءت به العقيدة الشورية التي

جاء بها الاسلام. فهو يرى ان هذه العقيدة انها طبقت في بدء الخلافة الاسلامية، في حين ان التجربة السياسية في الشرق الاوسط كانت في عهود الخلفاء والسلاطين صورة لحكم الفرد في اكثر الأحيان. ثم ان الشرع الاسلامي بنظره لا يعرف المجالس التمثيلية الشرعية، كما انه ليس في التاريخ الاسلامي اخبار عن مجالس او مجامع او برلمانات. ثم ان الفقهاء المسلمين لم يقبلوا أبداً فكرة قرار الأغلبية.

واستكمالا لمحاولة مقارنته يشرع المؤلف بعرض تأثير الثورة الفرنسية وافكارها على المنطقة حيث بدأت تتمثل الغرب وتحاول الأخذ عنه ما يسمى التمثيل الحر، والحكومات الدستورية.. لكن معظم هذه المحاولات لإدخال هذا الشكل من الحكم الى المنطقة كانت محزنة. وفي هذا المجال يستعرض تجربة الاتراك مع (بيرقدار مصطفى باشا)، وتجربة المصريين (محمد علي باشا)، وتجربة تونس (باي تونس) وعن تجربة النظم الدستورية يقول «لويس» إنها انتهت الى فشل ذريع، وأُوقِف العمل بكل الدساتير التي أُعلنت سابقاً وحل محلها نُظُم اخرى غلب عليها حكم صغار الضباط والملوك. والخلاصة التي يخرج بها هي ان الاسلام والديمقراطية امران لا يجتمعان!! وبالنسبة لمرحلة الجمهوريات فهو يعتبرها في هذه المنطقة لا تعني سوى دول لا يحكمها ملوك، ناهيك عن ان لا صلة لكلمة جمهورية بالطريقة التي وصل فيها رئيس الدولة الى منصب الرئاسة ولا بالطريقة التي يخرج بها من هذا المنصب. فالجمهورية برأيه في منطقة الشرق الأوسط تعني انتهاء الحكم الملكي وأكثر ما يتعلق به بعيداً عن الحكم التمثيلي والديمقراطية والليبرالية.

ويناقش المؤلف في هذا الفصل تجربة الجمهورية العربية المتحدة وكيفية تشكلها بين قطرين عربيين (مصر وسوريا) والنتائج التي آلت اليها، مع عرض لبداية تشكل نواة الفكر الاشتراكي مع بعض الكتاب (شميِّل ـ سلامة موسى) وتأثر هؤلاء بالكتابات وتجارب الاحزاب الاشتراكية الاوروبية (حزب العمال البريطاني). ويصف لويس العمل في سبيل التحرر في هذه المنطقة على أنه لاقى اندحاراً على الصعيدين السياسي والاقتصادي. أما الفصل الرابع فيخصصه لمفهومي (الوطنية ـ القومية) ومضامينهما في المنطقة. فالاسلام بنظره لم يعرف هذين المصطلحين ويعتبرهما نظريات خيالية حجبت الحقائق القديمة الواقعية في الدولة والعقيدة، لكن المنطقة تأثرت تأثيراً بالغاً بالمفاهيم الاوروبية واطروحاتها الوطنية، والنظريات القومية التي نشأت في القرن التاسع عشر؛ ونتيجة لهذا التأثر فقد انعزلت الشعوب الثلاثة في الشرق الاوسط عن بعضها البعض (مصر ـ تركيا ـ ايران). وأول تحرك في الشرق الاوسط نحو الولاء الجديد كان تحرك الوطنية وليست القومية. فقد استلهمتها شعوب المنطقة من الفرنسيين والانكليز وهي تعني ولاء المواطن لبلاده. كذلك ترجم تعبير (Patrie) مع بعض التحوير البسيط الى العربية والفارسية والتركية. واستخدمه المثقفون في هذه الدول في الكتابات السياسية والأشعار، وأدرج فيما بعد في وثائق حكومية الى جانب الصحف اليومية(مرآة الوطن)... وكان حظُّ الوطنية الاوروبية أقل في ايران والبلاد العثمانية التي كانت تحكمها عائلات بنت شرعيتها على الولاء للاسلام. اما مصطلح القومية فيطيل المؤلف بشرح مفاهيمه في المجتمعات الاوروبية (ايطاليا ـ المانيا) وكيفية تسرُّب افكار القومية الى تركيا عبر اقنية عدة: اللاجئون البولنديون والمجريون على الغالب اول الناقلين لهذه الافكار عندما ذهبوا الى تركيا بعد فشل ثورتهم ١٨٤٨. واستجاب الاتراك لهذه الافكار خاصة بعد الثورة الروسية (١٩١٧) والحرب الاهلية وانهيار السلطات الروسية في القوقاز. اما العرب فلديهم الاستعداد لتقبل افكار القومية وذلك يعود لايام الجاهلية، وبداية الاسلام مستخدماً المؤلف قول الثعالبي احد فلاسفة اللغة لتأكيد وجهة نظره؛ فمن يحب الرسول الكريم يحب العرب، ومن يحب العرب يحب لغتهم العربية لغة افضل الكتب المنزلة، فكل انسان

الدراسة المقارنة بين القرآن والانجيل في الروسيا

بدأ تدريس العربية في الروسيا بجامعة قازان (١٨٠٤ م)؛ وانتقلت العربية منها إلى معهد الرهبان الارثوذكس بقازان نفسها، حيث اتخذت هذه الدراسة لوناً جديداً، وهو مقابلة للقرآن بالانجيل؛ ومن المدرِّسين في هذا المعهد: **كاظم ميرزا بك** (العجمي المتنصّر) **وايلمينسكي** (١٨٤٦)، **وسابكولوف** (١٨٦٢)، وبندلي الجوزي (١٨٧١ - ١٩٤٢ م) من أهل القدس الشريف.

★★★

أمّا بعد، فإننا نرجو أن نكون فيما عرضناه من أطوار الدراسات القرآنية في بلاد الروسيا، سواء فيما يتعلق بالمصحف العثماني أم المصاحف المخطوطة وامطبوعة، بالإضافة إلى أسماء المستشرقين الروس الذين اهتموا بهذا الكتاب الكريم، ترجمةً أو تحليلاً أو تحقيقاً، أن نكون قد أتحنا لمن يطلع على هذا الموضوع فرصة الوقوف على التاريخ الكامل للقرآن الكريم في الروسيا، وفوق كل ذي علم عليم.

المراجع

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة- لابن تغري بردى الاتابكي.
- تلفيق الأخبار في تاريخ قزان والبلغار - للشيخ محمد مراد بن عبدالله الرمزي البلغاري ثم المكي.
- مجلة بلاد السوفيات.
- مباحث في علوم القرآن - للدكتور الشيخ صبحي الصالح.
- مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق - مقالة الأب توما ديبو المعلوف، وجعفر الحسني، وعبدالرحمن الكيالي.
- أخبار الحكماء - للقفطي.
- المجلة الشرقية الأميركية.
- نشرة مجمع العلوم السوفياتي - كراتشكوفسكي.
- المسلمون في الاتحاد السوفياتي - الشيخ ضياء الدين بن ايشان بابا خان.
- المؤلفات الاسلامية في الاسلام - أولغا بنيتو.
- المكتبة العربية، الطباعة خلال ٥٠٠ سنة - المهندس شنورر (الالماني).
- معجم المطبوعات العربية والمعربة - يوسف اليان سركيس.
- اعجاز القرآن - مصطفى صادق الرافعي.
- المعجزة الكبرى القرآن - الشيخ محمد أبو زهرة.
- مجلة الكشاف - مقال لعبدالله مخلص.

ناظورة الحق في فرضية العشاء وإن لم يغب الشفق ـ شهاب الدين المرجاني .
الفوائد المهمة ـ شهاب الدين المرجاني .
تاريخ المصحف العثماني ـ الشيخ اسماعيل مخدوم .
تاريخ القرآن ، الشيخ موسى جار الله روستوفدوني .
السياحة فيما وراء النهر ـ الشيخ موسى جار الله روستوفدوني .
عيون الاخبار ـ لابن قتيبة الدينوري .
معجم البلدان ـ لياقوت الحموي الرومي .
رحلة ابن بطوطة « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » .
منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان ـ لمحمد أمين الخانجي .
نهاية الأرب ـ لشهاب الدين النويري .
صفحات من تاريخ الاسلام والمسلمين في بلاد السوفيات ـ الشيخ طه الولي .
المستشرقون ـ نجيب العقيقي .

منذ عام (١٩٥٥) كان محايداً لأن سجل علاقاته السابقة معها لم تشبه شائبة.. وعلى هذا الاساس فإن أي منافسة على مركز القوة والنفوذ اذا استعملت روسيا والغرب نفس الاساليب السياسية والاقتصادية فإن النتيجة ستكون لصالح روسيا؛ لأن لها مبدئياً رصيداً نفسانياً كبيراً عند العرب (صفحة ٢١٩). وبلغ الأمر بالمؤلف حد القول ان بعض العرب بدأوا يقبلون بوجود اسرائيل بعد ان اعترف بها المجتمع الدولي وبالتالي اصبحت أمراً مقرراً. لذا يجب التعامل مع العرب على اساس المساعدة الاقتصادية والانمائية كي لا ينحسر الغرب ومصالحه.. وليس من المعقول سحق المعارضة العربية كلياً، ولا التسليم الكلي بكل مطالبها.

ما يمكن معرفته من كتاب «الغرب والشرق الاوسط» لـ برنارد لويس ليس أكثر من اطلاع الانسان العربي المسلم على تفكير الغرب الاستعماري ونظرته الى الاسلام، وقراءة مثقفيه لتاريخ منطقة الشرق الاوسط وكيفية بروز «الأنا الحضارية الغربية» تجاه الآخرين وخصوصاً الحضارة العربية الاسلامية التي برغم انحسارها فإنها ما زالت تشكل الهاجس المخيف لخيلة «الغربي» الذي يحاول بكل حضارته القضاء على ما تبقى من الحلم، والتخلص من الذاكرة التي لا تموت. لقد ألّف برنارد لويس كتيّبه هذا أوائل الستينيات. وجدّت بعده مستجداتٌ كثيرة؛ بيد أنّ أفكاره الأساسية عن الإسلام وعلاقته بالغرب، ونصائحه عن طريقة معاملة الغرب (والولايات المتحدة بالذات) للعرب؛ ما تزال تسودُ الغرب والولايات المتحدة كما يظهره كتاب إدوار سعيد الأخير: تغطية الإسلام.